الناتو يتوسع شرقاً وعيونه على الجنوب

□ مثَّل تأسيس حلف شمال الأطلسي (الناتو) في العام ١٩٤٩م أقوى تحالف إقليمي في العالم، وشكَّل لمواجهة خطر التوسع الشيوعي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية عندما سعى الاتحاد السوفييتي إلى بسط نفوذه على أوروبا، وعند تشكُّله لم يكن يضم سوى (١٢) دولة، وكان هدفه الأساسي أو الرئيسي المعلن في لائحته هو حماية الحرية والميراث والحضارة العامة للدول الأعضاء عن طريق تشجيع الاستقرار والرفاهية في منطقة شمال الأطلسي.

محمد شبيطة

وقد شهد الناتو أول توسع له في العام ١٩٥٢م عندما انضمت كل من اليونان وتركيا إليه، ثم انضمت ألمانيا الغربية في العام ١٩٥٥م .. وعندما تشكَّل كان الوقت حينذاك يسود فيه القلق بسبب الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، إلاَّ أن التوسع الذي يشهده الحلف منذ انهيار الاتحاد السوفييتي في بداية التسعينيات من القرن الماضي وما أعقبه من انهيار لحلف وارسو الذي كان حلفاً مضاداً، ظهرت على إثره مخاوف لدى روسيا - وريث الاتحاد السوفييتي السابق - حيث أن روسيا ترى أن الهدف الذي تشكل الناتو لأجله قد زال ولم يعد له وجود، وأن هذا التوسع يشكل خطراً متخفياً لأمنها، وترتب على ذلك أن تم تشكيل مجلس الناتو روسيا المشترك الدائم في مايو ٢٠٠٢م لمنح روسيا دور استشاري في مناقشة القضايا ذات الاهتمام المشترك.

وعلى الرغم من أن روسيا مُنحت الحق في الإدلاء برأيها، إلاَّ أنها نادراً ما شعرت - برأي المحللين السياسيين - بأن حلف الأطلسي يضع هذا الرأي في الاعتبار .. ومما زاد من المخاوف الروسية هو انضمام جمهورية التشيك والمجر وبولندا إلى الحلف عام ١٩٩٩م، وهذه الدول كانت ضمن حلف وارسو السابق، لتصبح المسافة بين حدود الحلف الغربي وروسيا نحو (٤٠٠) ميل فقط، ومنذ فترة التسعينيات والناتو يتخذ سلسلة من الخطوات لمحاولة تحسين علاقته مع موسكو التي كانت تخشى أن تصل عمليات توسيع الناتو حتى الحدود الروسية .. ومع إعلان الجمعة الماضي واحتفالات دول الناتو بأكبر عملية توسيع في تاريخ الحلف بانضمام سبع دول شيوعية سابقاً، فقد اعتبر بعض وزراء خارجية دول الحلف، الذين احتفلوا بهذه المناسبة في بروكسل، أن عملية التوسع هذه نهاية رسمية لانقسام أوروبا في عهد الحرب الباردة، فقد رفعت أعلام بلغاريا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا ورومانيا وسلوفاكيا وسلوفينيا في ساحة مقر الحلف الأطلسي في بروكسل بعد مرور أربعة أيام على انضمام الدول السبع، ليرتفع عدد الأعضاء إلى (٢٦) عضواً.

وقال الأمين العام للحلف دي هوب شيفر : اليوم هو أبلغ تعبير على أن الموقع الجغرافي لم يعد يقرر مصير الدول في أوروبا، مؤكداً أن الحلف يفتح أبوابه أمام الدول الأخرى التي ترغب في الانضمام إلى عضويته.

وانضمام دول البلطيق الثلاث : إستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا - وهي دول سوفييتية سابقة - أثار، بنظر المراقبين، غضب موسكو، غير أن لقاء وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف مع نظرائه في حلف الأطلسي اعتبره مراقبون آخرون إشارة قبول من روسيا.

وتعتبر زيادة عدد أعضاء الحلف إلى (٢٦) دولة بمثابة إعادة رسم للخريطة الاستراتيجية الأوروبية بعد مرور (١٥) عاماً على سقوط الستار الحديدي وإعادة توحيد القارة.

ويتوقع بعض المحللين أن يقلل التوسع من الكفاءة العسكرية للحلف، وأنه بدلاً من نشر الاستقرار في أوروبا، سيضع خطوط مواجهة جديدة ويخلق فوضى جديدة.

وينظر الكثيرون إلى العلاقة مع روسيا باعتبارها تأكيداً على أن الناتو اتخذ القرار بتغيير جدول أعمال الحرب الباردة إلى جدول أعمال يركز على محاربة التهديدات الدولية مثل الإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل، خصوصاً وأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي تعرضت لها الولايات المتحدة - وهي المهيمنة على الحلف منذ تأسيسه وحتى الآن - وما أظهرته روسيا من تضامن مع واشنطن عقب الهجمات، ليصبح العامل الحقيقي لتقارب العلاقات مع موسكو وما أعقب ذلك من نشاطات دبلوماسية، والتي أفضت إلى تشكيل مجلس الناتو روسيا المشترك - كما أشرنا سابقاً - وأخرج روسيا من عزلتها، إلاَّ أنه لا تزال الكثير من الأسئلة مطروحة بشأن كيفية تطوير التحالف في المستقبل.

وكما هو واضح فإن الحلف تشكَّل لمواجهة المد الشيوعي السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية، ومع انهيار المعسكر الشيوعي فإن هدف الحلف غير واضح في هذه المرحلة، على الرغم من أن الناتو، منذ بداية التسعينيات، استخدم دوره الدفاعي لتبرير أنشطته خارج المنطقة، مجادلاً بأن أي فوضى في أي جزء من أوروبا تعد تهديداً لأعضائه، لذا فقد شكَّل الناتو عام ١٩٥٥م للمرة الأولى في تاريخه قوة متعددة الجنسيات بتفويض من الأمم المتحدة لتنفيذ النواحي العسكرية من اتفاق السلام في البوسنة.

وفي عام ١٩٩٩م شن حلف الأطلسي حملة جوية على يوغسلافيا في أكبر عملية عسكرية يقوم بها وللمرة الأولى التي يستخدم فيها القوة ضد دولة مستقلة ذات سيادة ودون تفويض من الأمم المتحدة، وكذلك قيامه بعملية نزع الأسلحة في مقدونيا عام ٢٠٠١م، بالإضافة إلى مشاركة قوات الحلف في القوات الدولية في أفغانستان.

وبما أن الحلف يركز حالياً على مكافحة الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، فإن الغموض يحيط بكيفية تطوير هذا الدور، خاصة في الوقت الذي يسعى فيه الاتحاد الأوروبي إلى فرض سياسته الخارجية وقوته العسكرية .. وبعد طرح مشروع الدفاع المشترك في إطار الاتحاد الأوروبي من قبل عدد من الدول، والذي رأى البعض، وخصوصاً الأمريكيين، أن ذلك سيشكل ازدواجية مع الحلف أو ربما مواجهة، ويتضمن هذا المشروع إقامة خلية عسكرية قادرة على التخطيط وقيادة عمليات مستقلة لكنها محددة بقيود كبيرة لطمأنة حلف الناتو، إلاَّ أن ذلك أثار وزير الدفاع الأمريكي بعد إعلانه في ديسمبر من العام الماضي، والذي أكد أن حلف الأطلسي هو الأساس ولا حاجة لأوروبا لتشكيل مثل هذه الخلية .. وقد شهد الحلف انقساماً كبيراً حول الحرب على العراق عندما عارضت ألمانيا وفرنسا هذه الحرب التي قادتها الولايات المتحدة وبريطانيا، ولا يزال هذا الخلاف بارزاً إلى الآن .. فيوم الاحتفال بالتوسع الجديد للحلف الجمعة الماضية، وجَّه وزير الخارجية الأمريكي كولن باول دعوة للحلف للقيام بدور جماعي في العراق بعد نقل السلطة في ٣٠ يونيو القادم، إلاَّ أن معارضة ألمانيا وفرنسا لمثل هذا الدور جددت انقسام الحلف على الملف العراقي، فقد قال وزير الخارجية الفرنسي الجديد ميشال بارينيه : نعتقد أن الحلف الأطلسي ليس المكان المناسب لإعداد أو اتخاذ قرار في ما يتعلق بالوضع في العراق بعد الأول من يونيو القادم عندما تقوم حكومة شرعية هناك، مضيفاً : لذلك فهذه المسألة الخاصة بدور محتمل للحلف في العراق لا تحظى بأولوية.

وفي الإطار ذاته قال وزير الخارجية الألماني يوشكا فيشر : إن على الأطلسي التركيز على مهمات حفظ السلام التي تمثل أولوية بالنسبة له في أفغانستان والبلقان ومحاربة الإرهاب، لأنه مهدد بتشتيت طاقته.

ومثل هذه الخلافات تؤكد أن توجهات الدول هي التي توجه الحلف وليس الحلف بأهدافه ولائحته، على الرغم من أن الأهداف التي تشكَّل الحلف على أساسها قد زالت، والمستقبل كفيل بإظهار الأهداف الحقيقية لهذا الحلف وتوسعاته التي كادت تشمل كل دول أوروبا والولايات المتحدة وكندا وربما مستقبلاً بلداناً من الشرق الأوسط، كما تردد الأنباء.

وفي الوقت الذي يتوقع كثيرون أن أهم أوجه التغيير في الحلف هي تشكيل قوة رد سريع جديدة تهدف إلى الانتشار السريع وتشتمل على قوات جوية وبرية وبحرية وقوات خاصة تندمج في وحدة مستعدة وقادرة على التحرك، كما حصل في قوات الحلف في أفغانستان التي تعتبر انعكاساً للتغيير في أدوار ومهمة الحلف التي كانت تتركز على الدفاع عن أراضي أوروبا، إلاَّ أن الولايات المتحدة الأمريكية، التي تهيمن على الحلف منذ إنشائه وحتى الآن، تسعى إلى تخفيف العبء الذي تعاني منه قواتها التي تنتشر في أماكن مختلفة من العالم، حيث تعتزم واشنطن تفكيك العديد من قواعدها الضخمة التي كانت تتمركز فيها قواتها على مدى أكثر من (٥٠) عاماً للدفاع عن أوروبا، حيث تخطط واشنطن لأن تُشكِّل، بدلاً من ذلك، شبكة من القواعد الصغيرة في كل أنحاء العالم تتواجد فيها قوات خفيفة وتستخدم للتدريب أو في أوقات الأزمات، فقد سرعت هجمات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة وتهديد الإرهاب، من تلك التغييرات، حيث أقرت واشنطن أن الشرق الأوسط «الكبير» سيكون في المستقبل القريب محط الاهتمام الرئيسي.